



على سائر الأعمال، والزكاة التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتضع أخاه المسلم، وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر بحجة الله على محبة للمال، فيخرجه محبوه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

فـ ﴿أولئك﴾ هم المحسنون، الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿على هدى﴾ أي: عظيم، كما يفيد التنكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿من ربهم﴾ الذي لم يزل يريهم بالنعم، ويدفع عنهم النقم.

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم، من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الذين أدركوأرضار ربهم، وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه. وذلك لسلوكلهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعرض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، فلذلك قال:

﴿٦٦ - ٩﴾ ﴿ومن الناس من يشتري

(٥) زيادة من: ب.

(٦) زيادة من: ب.

المكارة، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.

﴿ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾ أي: قد ضعف إيمانهم، وقل يقينهم، فخفت لذلك أحلامهم، وقل صبرهم، فإنك أن يستخفك هؤلاء، فإنك إن لم تجعلهم (١) منك على بال وتحذر منهم، وإلا استخفوك وحلوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفوس تساعدكم على هذا، وتطلب التشبه الموافقة (٢)، وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل، يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف [العقل] (٣) خفيفه.

ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة وتحكم، فتعمل بالخزم.

ومن إحكامها: أنك تجهد آياته المتكررة، كالتقصص، والأحكام، ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وأعمل فيها العقل تفكيراً، انبهر عقله، وذهل ليه، من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن - مع أنه حكيم - يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

فإنه ﴿هدى﴾ لهم، يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم، ﴿ورحمة﴾ لهم، تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والشواب الجزيل، والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عمليين فاضلين: الصلاة الشاملة على الإخلاص ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة

فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فإله المستعان.

تفسير سورة لقمان وهي مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تلك آيات الكتاب الحكيم * هدى ورحمة للمحسنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾ أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

من إحكامها، أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها، أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار (٤) السابقة واللاحقة، والأمر الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء أولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت

(١) كذا في ب وفي أ: تجعل.

(٢) كذا في ب وفي أ: والمرافقة.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في أ: الأحكام والصواب من: ب.

دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين* يتلو تعالى على عباده آثاراً من آثار قدرته، ويدائع من بدائع حكيمته، ونعماً من آثار رحمته، فقال: ﴿خلق السماوات﴾ السبع، على عظمها، وسعتها، وكشافتها، وارتفاعها الهائل. ﴿بغير عمد ترونها﴾ أي: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرؤيت، وإنما استقرت واستمسكت، بقدره الله تعالى.

﴿وألقي في الأرض رواسي﴾ أي: جبالاً عظيمة، ركزها في أرجائها وأنحائها، لثلاً، ﴿تعيد بكم﴾ فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنيتها.

﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم، ومصالحهم ومنافعهم. ولما بثها في الأرض، علم تعالى أنه لا بدل لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، ﴿فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ المنظر، نافع مبارك، فترعت فيه الدواب المنبثثة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿هذا﴾ أي: خلق العالم العلوي والسفلي، من جماد، وحيوان، وسوق أرزاق الخلق إليهم. ﴿خلق الله﴾ وحده لا شريك له، كل مقر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين.

﴿فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ أي: الذين جعلتموهم له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا، أن يكون لهم خلق كخلقهم، ورزق كرزقهم، فإن كان لهم شيء من ذلك فأروني، ليصح ما ادعيتهم فيهم من استحقاق العبادة.

ومن المعلوم أنهم لا يقدر أن يروه شيئاً من الخلق لها، لأن جميع المذكورات، قد أقروا أنها خلق الله وحده، ولا ثم شيء يعلم غيرها،

عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصرط المستقيم. ولا يتم له هذا، حتى يقدر في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزواً ويسخر بها وبمن جاء بها، فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في الحق والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده، وخدعه بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميزه ذلك الضال ولا يعرف حقيقته.

﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ بما ضلوا وأضلوا، واستهزؤوا [بآيات الله] ^(١) وكذبوا الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا﴾ ليؤمن بها وينقاد لها، ﴿ولي مستكبراً﴾ أي: أدبر إديار مستكبر عنها، راد لها، ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه، بل أدبر عنها ﴿كأن لم يسمعها﴾ بل ﴿كأن في أذنيه وقراً﴾ أي: صمماً لا تصل إليه الأصوات، فهذا لا حيلة في هدايته.

﴿قبشره﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة. ﴿بعذاب أليم﴾ مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقادر قدره، ولا يدري بعظيم أمره، وهذه بشارة أهل الشر، فلا نعمت البشارة.

وأما بشارة أهل الخير فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام، والعمل الصالح.

﴿لهم جنات النعيم﴾ بشارة لهم بما قدموه، وقرئ لهم بما أسلفوه. ﴿خالدين فيها﴾ أي: في جنات النعيم، نعيم القلب والروح والبدن.

﴿وعد الله حقاً﴾ لا يمكن أن يخلف ولا يغير ولا يتبدل. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ كامل العزة، كامل الحكمة، من عزته وحكمته، وفق من وفق، وخذل من خذل، بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تعمد بكم وبث فيها من كل

وَأَلْقَى فِيهَا مَاءً فَانْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَرَكَ الْجِبَالَ رُحًا وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا لَيُبْذَل بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ كَالْعُصْفُرِ إِذَا قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمَسَّكُمْ مِنْهُ أَنْفُسُكُمْ فَاصْبِرُوا إِنَّ الْجَنَّةَ مُرْسَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ وَرِجَالُهُمْ عَلَىٰ سُرُطٍ مَقَامًا يَصْعَدُونَ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا لَيُبْذَل بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ كَالْعُصْفُرِ إِذَا قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمَسَّكُمْ مِنْهُ أَنْفُسُكُمْ فَاصْبِرُوا إِنَّ الْجَنَّةَ مُرْسَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ وَرِجَالُهُمْ عَلَىٰ سُرُطٍ مَقَامًا يَصْعَدُونَ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا لَيُبْذَل بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ كَالْعُصْفُرِ إِذَا قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمَسَّكُمْ مِنْهُ أَنْفُسُكُمْ فَاصْبِرُوا إِنَّ الْجَنَّةَ مُرْسَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ وَرِجَالُهُمْ عَلَىٰ سُرُطٍ مَقَامًا يَصْعَدُونَ

لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً قبشره بعذاب أليم * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم * خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم

أي: ﴿ومن الناس من﴾ هو محروم مخذول ﴿يشترى﴾ أي: يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن في الشيء. ﴿لهو الحديث﴾ أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن أجل مطلوب. فدخل في هذا، كل كلام محرم، وكل لغو وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الراديين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الماجريات الملهية، التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا.

فهذا الصنف من الناس، يشترى لهو الحديث عن هدي الحديث ﴿ليضل﴾ الناس ﴿بغير علم﴾ أي: بعدما ضل بفعله، أضل غيره، لأن الإضلال ناشيء عن الضلال. وإضلاله في هذا الحديث، صده

الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الويل؟

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حملته أمه وهنا على وهن﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من السحيم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم ﴿فصاله في عامين﴾ وهو ملازم لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها، أمّا يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وإن جاهدك﴾ أي: اجتهد والداك ﴿على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ولم يقل: «وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعهما»، بل قال: ﴿فلا تطعهما﴾ أي: بالشرك، وأما برهما، فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿واتبع سبيل من أناب إلى﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه.

واتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثم إلى موجعكم﴾ الطائعات والمعاصي والمنيب، وغيره ﴿فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

(٥) زيادة من: ب.

أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه﴾

أو قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبيّن له السبب في ذلك فقال: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ووجه كونه عظيماً، أنه لا أظفّع وأبشع من سؤى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسؤى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمن له الأمر كله، وسؤى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسؤى من لم يُنعم بمثقال ذرة [من النعم] ^(١) بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم وديانهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟!!

وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أخس المراتب] ^(٢) جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿ووصينا الإنسان﴾ أي: عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بوالديه﴾ وقلنا له: ﴿اشكر لي﴾ بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، ﴿ولوالديك﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما [وإكرامهما] ^(٣) وإجلالهما، والقيام بمؤنتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إلى المصير﴾ أي: سترجع إليها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه

(٣) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

ثبتت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿بئس الظالمون في ضلال مبين﴾ أي: جلي واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿١٢-١٩﴾ ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد﴾ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ إلى آخر القصة. يجبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان، بالحكمة، وهي العلم [بالحق] ^(١) على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً.

وأما الحكمة، فهي متلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه النعمة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين، يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد وبطل ذلك عليه. والله غني [عنه] ^(٢) حميد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره، فغناه تعالى، من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله، حميداً في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً، أو عبداً صالحاً؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

﴿٢٠-٢١﴾ ألم تروا أن الله سخر

لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير * يمتن تعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها، وعدم الغفلة عنها فقال: ﴿ألم تروا﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أن الله سخر لكم ما في السماوات﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد.

﴿وما في الأرض﴾ من الحيوانات والأشجار والزرع، والأهوار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾.

﴿وأسبغ عليكم﴾ أي: عمتكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة التي نعلم بها، والتي تحفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة النعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿ولكن مع توالي هذه النعم، ﴿ومن الناس من﴾ لم يشكرها، بل كفرها وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، فجعل ﴿يجادل في الله﴾ أي: يجادل عن الباطل ليحرض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم، فيتكبر وشأنه، ويسمع له في الكلام ﴿ولا هدى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿ولا كتاب منير﴾ [غير مبين للحق فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين] (١) وإنما جداله في الله مبني

﴿فخور﴾ بقوله.

﴿واقصد في مشيك﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا مشي البطر والتكبر، ولا مشي التماوت. ﴿واغضض من صوتك﴾ أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إن أنكر الأصوات﴾ أي: أنقطعها وأبشعها ﴿لصوت الحمير﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وحكمها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيّن له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين، وبيّن له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احتز بأن محل برهما وامتثال أوامرهما ما لم يأمرهما بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهدها على الشرك. وأمره بمراقبة الله، وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمزح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى: فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا، أن يكون مخصوصاً بالحكمة، مشهوراً بها. ولهذا من مئة الله عليه وعلى سائر عباده، أن قصص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿يا بُنَيَّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، ﴿فتكن في صحرة﴾ أي: في وسطها ﴿أو في السماوات أو في الأرض﴾ في أي: جهة من جهاتهما ﴿يأت بها الله﴾ لسعة علمه، وقام خبرته، وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهب من عمل القبيح، قل أو كثر.

﴿يا بُنَيَّ أقم الصلاة﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، ﴿وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه.

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿واصبر على ما أصابك﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فنضمن هذا، تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيه.

ولما علم أنه لا بد أن يتلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿واصبر على ما أصابك إن ذلك﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿من عزم الأمور﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿ولا تصغر خدك للناس﴾ أي: لا تجلّ وتعيس بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضلاً.

﴿ولا تمس في الأرض مرحاً﴾ أي: يطرأ، فخرأ بالنعم، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك. ﴿إن الله لا يحب كل مختال﴾ (١) في نفسه وهيئته وتعاضله

(١) كذا في: ب، وزاد في: أ قوله تعالى: فخور.

(٢) زيادة من: ب.

وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا، فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلاله عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاهما للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم وتصرف فيهم وديبرهم، وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال:

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَنْفُسٌ وَاحِدَةً﴾ وهذا شيء يمجيز العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لحظة واحدة - كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.

ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصرات، فقال:

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ فِي أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير، وهذا فيه أيضاً، انفراده بالتصريف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر.

وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما،

﴿وَالْبَحْرَ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ﴾ مداداً يستمد بها، لتكسرت تلك الأقسام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله تعالى، وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تنقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيهاً تستنير به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بره: «لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وإلا، فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل، من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلا الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت^(١) بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفاذها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة.

وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاذه، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاذ له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾.

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وأخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله



القدرية، وأحكامه الأمرية، وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد ممالك، مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق. ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾.

وأن أعمال النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه، أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنهى له العقول، وتحير فيه الأفتدة، وتسبح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ يكتب بها

(١) في ب: مذت.